العقيدة وأثرها في تكوين الشخصية

الدكتور محمد أمين المصري رحمه الله(*)

بعض ملاحظات في تربية العقيدة

أسس السلوك الأول : لا بد لنا لبيان أثر العقيدة الدينية في تكوين الشخصية من الرجوع إلى الأسس الأولى التي توجد في بناء الشخصية والتي تحرك الكائن الحي وتدفع به دفعاً فطرياً إلى مختلف أنواع السلوك ، تلك الأسس الأولى هي الغرائز .

الغرائز : أودع الله في الكائنات الحية قوى فطرية تضمن لها بقائها وتعدها للنضال في بيئتها ، وتهيء لهـــا ســـبل عيشها فيها ، هذه القوى هي ما نسميه بالغرائز ، وهي دوافع فطرية لا تبذل الكائنات الحية جهداً لاكتسابها ولا تنفق زمناً في الحصول عليها ، بل تولد وهي مجهزة بها .

أمثلة من السلوك الغريزي : ولقد أولع العلماء بدراسة أنماط عيش الحيوانات وملاحظة سلوكها الغريزي ، فقاموا لذلك ببحوث طويلة وأتونا من أخبارها بالعجب العجاب .

وفيما يحدثوننا به من ذلك عزيزة القطيع أو التجمع وهي غريزة تتصف بها على الغالب الحيوانات الهادئة الوادعة الضعيفة ، ويتم لها بها سهولة التزاوج والتعاون في البحث عن الغذاء والاشتراك في الدفاع أو الهجوم وقت الخطـــر ، ويروون لنا من مشاهدها المألوفة وجود قائد أو أكثر ، في كل قطيع من الحيوانات أو سرب من الطيـــور ، يرشـــد القطيع في حله وترحاله وينأى به عن موطن الخطر ، ومن الممتع جداً مشاهدة الجماعات المختلفة من الحيوان أثنـــاء إقامتها وتنقلها وما يصدر عنها من أعمال يفسرها الناظر بأنها مظهر من مظاهر الحيلة والحذر وبعد النظر ، نـــضرب لذلك مثلاً البط البري فإنه لا ينـــزل في مكان قبل أن يرسل بضعة أفراد يقتصر عملها على الحراسة ، فإذا ما أحست بالخطر صرخت صرخة عالية هب على أثرها السرب دفة واحدة محلقاً في السماء مبتعداً عن موطن الخطر .

ويذكرون أن الطيور في هجرتها تسير في جموع زاخرة لا يحصيها عدد ومن أجمل المشاهد مشهد ســـرب مـــن الطيور يحلق في السماء ويسير وراء قائده كأنه فرقة مدربة تدريباً كاملاً تسير بسرعة واحدة ترتفع وتنحط بتوافـــق لا نشاز فيه وتدور في الفضاء وتنعطف دون أن يفارق واحد منها ترتيبه حتى ليتوهم الناظر أن السرب وحدة يحركهـــا عقل واحد يصدر أمره فينبعث الجميع بحركات مؤتلفة كأنهم جسم واحد .

ويحدثوننا فيما يحدثوننا عن غريزة الأمومة والعطف على الأبناء وهي من أهم الغرائز في بقاء نوع الحيوان وحفظ جنسه ، و لم نعدم مشاهدة أمثلة كثيرة من ذلك لدى سائر الحيوانات الأليفة ، على أن هذه الغريزة نامية كل النمـــو لدى الحيوانات غير الأليفة أيضاً فأنثى السبع على الغالب هادئة ولكنها تشتد ضراوتها إذا مُسّ ابنها بمكروه فيـــشتد حينئذ غضبها وتثور ثائرتها وتدافع عنه حتى آخر رمقٍ من حياتها ، وقد تصيبها القذائف النارية ويتقاطر الدم غزيراً من جسمها ولكنها لا تنفك عن صيانتها لابنها حتى يدركها الموت .

ولدى التأمل في سلوك هذه الكائنات الحية –وأمثلتها لا تحصى وعجائبها لا تنقضي– نحكـــم أن الغريـــزة مـــن أعجب الظواهر الكونية إذ يأتي فيها الحيوان دون سابق تدريب أو خبرة من الأعمال الدقيقة المعقدة ما يقف العقـــل البشري أمامه حائراً مشدوها .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن هذه الظاهرة من الآيات الكبرى التي يجمل بالعقل أن يقف بها ليـــذعن أن هـــذا الكون بما فيه من عوالم معجزة تسيّره إرادة علوية وفق نظامٍ ثابت متقن عجيب . يقول تعالى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِـــي مِـــنْ كُـــلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٨-٦٩]

الغريزة والذكاء : ولقد تساءل الباحثون عن هذه القدرة الموجودة لدى الحيوان وهذا السلوك الناشـــئ عنـــها العجيب أهو سلوكٌ ينبعث عن عقل وإدراك وروية أم هو سلوك فاقد لكل أنواع الإدراك والتفكير ، وبتعبير آخر هل يدرك الحيوان الغاية التي يهدف إليها سلوكه وهل يتصور هذه الغاية قبل أن يقوم بعمله ، وهل يدرك أن بلوغ غايته يتم بالسبيل التي يسلكها ؟ أيفعل ذلك كله وهو مدرك معنى ما يفعله ؟ أم هو يقوم بعمله غير شاعر بشيء من ذلك.

قام العلماء بتجارب كثيرة يبتغون من ورائها حل المشكلة السابقة ، ولقد تبين لهـــم بعـــدها أن هـــذه الغرائـــز متخصصة تحسن نوعاً واحداً من السلوك ولا تحسن غيره أبداً ، فإذا ما تغيرت الظروف المحيطة أو طرأ طارئ جديـــد في البيئة تخبط الحيوان في سلوكه وظهرت غباوته جلية واضحة ، وتبين لهم أيضاً أن الغريزة عمياء بمعنى أنهـــا تقـــوم بعملها من غير أن تدرك معناه أو مؤداه ، فالنحلة تصنع العسل لصغارها ولكنها إذا سلبت بيوضها وأخليـــت منـــها خلاياها ظلت دائبة على عملها ماضية فيه على سجيتها غير حافلة بحدوث شيء .

ولكن ليس معنى هذا أن الحيوانات جميعها فاقدة كل إدراك . لقد تبين للباحثين أن الحيوانات ليست متساوية في ذكائها وغباوتها بل هي درجات شتى وطبقات متباينة ولقد وضع العلماء سلماً تصاعدياً رتبوا فيه الحيوانـــات مـــن حيث ذكائها فوضعوا في أدنى درجاته وحيدات الحجيرة وفي أعلاها القردة العليا .

وقد لاحظوا أن هنالك تناسباً عكسياً بين الذكاء والغريزة فكلما ضعف الذكاء لدى الحيوان كانت الغريزة أكمل وأقرب إلى تأدية حاجاته في سهولة ويسر ، وهذا مظهر من مظاهر الاتزان الدقيق في هذا الكون ، أشار إليه القـــرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ... **أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [طه : ٥٠]

الغريزة لدى الإنسان : والإنسان وهو أذكى الكائنات الحية لا يخلو الإسلاميّة غرائز تسلك به في كـــثير مـــن الأحيان –مسلكاً فطرياً ابتدائياً بعيداً عن السلوك المعقول ، يتم بغير تفكير أو روية وبدون إرادة .

ولقد كشف أحد الباحثين المعاصرين في الإنسان غرائز عدة لا تزيد على بضع عشرة ، منها غريزة حب البقاء ، وغريزة حب الجمع والادخار ، وغريزة الخوف ، وغريزة المقاتلة ، وغريزة الخضوع وغريزة السيطرة وغريزة التجمع.

ولكن الغريزة عند الإنسان تختلف اختلافاً كبيراً عنها لدى الحيوان : ذلك أن غريزة الإنسان مرنة جداً قابلة لأن تخلع ثوبها الفطري لتلبس ثوباً آخر تظهر فيه بعيدة كل البعد عن أصلها الطبيعي ، ولا تكاد تشاهد الغريزة بـــشكلها الفطري لدى الإنسان إلاّ عند الطفل أو الإنسان البدائي ، أما عند الراشد المتحضر فلا تشاهد إلاّ مغشاة بطبقات شتى من صنع أيدي المجتمع بمؤسساته المختلفة .

فمجتمعنا الحاضر لا يسمح للمغضب بأن يذهب فيبطش بمن أثار غضبه بل يطلب إليه أن يحمل نفسه على الهدوء والحلم والروية والأناة ، والطفل والابتدائي يخشيان الظلمة ويفزعان لدى سماعهما الأصوات العالية ، وهما إذا فزعـــا ركنا إلى الفرار ، أما الراشد المتحضر فيجمل به أن يكون ثابت القلب رابط الجأش لا تزعجه النوائـــب ولا تخيفـــه الشدائد ، وإذا كان يخشى شيئاً فهو يخشى أن يلحق به العار أو يبوء بالفشل أو يصيبه الإخفاق في ميادين الجهاد .

تعدل الغريزة : إنّ ما يسبب الخوف أو الغضب يسمى مثيراً لغريزة الخوف أو الغضب ولكل غريزة مثير خـــاص بها ، ولا يتم عمل الغريزة إلاّ إذا وجد المثير وتمّ للحيوان إدراكه فغريزة الغضب مثلاً لا تتحرك إلاّ لدى رؤية الحيوان عدواً له ، فإذا تمّ ذلك أعقبه تغير في النفس نسميه انفعالاً أو هيجاناً هو الشعور بالغضب ، يعقبه نزوع إلى الهجـــوم والمقاتلة نسميه سلوكا .

ومن الأمثلة التي سبقت يلاحظ أن الغريزة تتعدل لدى الإنسان في ناحية المثير فيفقد المثير الطبيعي ، كالظلمة مثلاً قدرته على إثارة الخوف ويحل محله مثير آخر غير فطري هو الخوف من العار مثلاً وكذلك قد يصل الفرد إلى درجـــة من تهذيب نفسه لا يغضب معها للاعتداء على نفسه أو ماله وهذا مثير فطري لغريزة الغضب ولكنه تثور ثائرته حين يجد ضعيفاً يسام الذل أو يعرض على العذاب .

وتتعدل الغريزة أيضاً في ناحية السلوك فيستبدل المرء بسلوك الطيش والجهالة سلوك الأناة والروية .

تعدّل الغريزة معناه إذن أن تستبدل الغريزةُ بمثيراتها الطبيعية مثيرات أخرى تتجه بالغريزة إلى الـــسمو والكمـــال وتدع بها الغريزة سلوكها الفطري إلى سلوك فيه النضج والقوة للفرد والخير والصلاح للجماعة .

وبهذا التعدل نرى الغرائز ذلك السيل المتدفق من القوى الذي لو ترك وشأنه لأتى على الحـــرث والنـــسل وقـــد انقلبت بعد تهذيبها إلى قوة أسلمت قيادها لجانب الحق وسارت في سبيل الخير .

ولذلك حرص المجتمع الحرص كله على ألا يبقي على غرائز الإنسان بشكلها الفطري لأن في ذلك خطراً علـــى سلامته وبذَل ما يستطيع لتربيتها وتنظيمها .

وكان من أهم الوسائل لذلك نشوء العواطف المثالية لدى الفرد .

العواطف : ليست العواطف أمراً فطرياً كالغرائز بل هي شيء يكتسب اكتساباً ولا يلبث الطفل بعد ولادتـــه أن يبدأ بتعرف كل ما يحيط به من أمه وأبيه وإخوته وأدواته ولعبه ولكن هذا التصرف لا يتم على أنه إدراك مجرد مـــن كل عاطفة ، بل يكون مصحوباً بعاطفة ميل أو نفور في كل شيء يتعرفه ذلك لأن كل ما يتعرفه الطفل يتم اتصاله به على أنه شيء يتفق مع ميوله ويشبع رغباته أو على أنه على العكس من ذلك يصدم ميوله وينافي رغباته ، وعلى هذا فلا بد أن يصحب كل شيء يتعرفه الطفل ميل إليه أو عزوف عنه ، وهذا الميل إلى الشيء أو عنه يزداد رسوخاً بتوالي الأيام وتكرار الحوادث حتى ينتهي إلى أن يكون عاطفة حب أو كراهية .

وينمو الطفل وتتسع دائرة خبرته وتزداد تعلقاته وتكثر عواطفه ، فمن ذلك عاطفة نحو الأصدقاء وعاطفـــة نحـــو المنـــزل فالمدرسة فالحي فالنادي .. وما إلى ذلك .

تنازع العواطف : وهذه العواطف الكثيرة قد تتضارب وتتنازع وقد يسودها عاطفة واحدة تهيمن عليها جميعهـــا وتسخرها كلها بل تسخر كل نزعات المرء وجميع قواه للعمل في سبيلها ، ويكون الفرد في الحالة الأولى موزعاً مشتتاً ضعيفاً معذباً ، ومثال ذلك أن يكون الإنسان موزعاً بين حب أبنائه وحبه للمال فهو بخيل جداً وقد نمت لديه عاطفة حب المال حتى بلغت أشدها وهو في الوقت نفسه محب لأبنائه وقد وقعوا أمامه في مرض خطر ونفسه لا تطاوعه في البذل وليست بقادرة على الصبر على ألم أبنائه فهو يتقلب بين الأسى على أبنائه والحسرة على ماله ومثل هذا يكون أعظم الناس عذاباً وأشهدهم حزناً وكمداً وأضعفهم عن المضي إلى غايته ، ومثال آخر لهذه الحال ذلك الجندي الذي تنازعت قلبه عاطفتان إحداهما عاطفة الوفاء لأمته والثانية عاطفة الإذعان لحبه لفتاة في صفوف أعدائه ، مثـــل هـــذا الإنسان يكون رهن أزمات شديدة وصراع نفسي عنيف ربما أودى به .

العاطفة السائدة : وفي الحالة الأولى حالة وجود عاطفة واحدة سائدة تسير النفس كلها إلى وجهة واحدة ، وإذا كانت تلك الغاية رفيعة سامية اتجهت النفس إليها أشد ما تكون وحدةً وأعظم ما تكون قوةً ، وإذا كانـــت الغايـــة وضيعة انحدر إليها المرء بعقله وإرادته وهوى فيها بأعظم شدة .

ومثال هذه الحال ذلك الذي استبدت به عاطفة حب الأبناء أو حب الذات أو المال ومثل هـــذا لا تـــصطرع في نفسه النـــزعات المتضاربة ولا تعصف بها الرغبات المتناقضة فهو أقوى من السابق ، ولكنه مع ذلك قد يكون في أشد حالات الشقاوة لأن سعادته كلها قد ارتبطت بنقطة واحدة انحصر فيها أفقه العقلي والنفسي وأصبح أسير رحمتـــها ورهين محبسها إذا ما أصيب بها تقوض بناء أمله وذهب رجاؤه .

سمو العاطفة السائدة : وقد يتسع أفق هذه العاطفة السائدة التي تتمكن من قلب صاحبها وتتحكم في ســـلوكه ، ويزداد شمولها فلا ترتبط حينئذ بالذات أو المال أو البنين أو الأسرة بل ترتبط بالأمة وقد تجاوز هذه الغاية أيضاً وتنطلق من أسر قيودها وتسمو حتى تشمل أفراد الإنسانية وتهدف إلى إسعادهم جميعا .

وقد تجاوز هذه الغاية أيضاً فتخترق حجب هذا الكون وتنظر فيما وراء الحس وتطمح ببصرها إلى الغيب وتبحث عن روح هذه الكائنات وسرّ وجودها .

وهنالك تسمو إلى أشرف عاطفة يمكن أن يسمو إليها النوع البشري ، وهنالك في جوار ربٍ كريم قوي قدير له الأمر وله الملك وإليه الحكم تجد السعادة التامة وتتوق إلى الاستغراق في مشاهد الجمال والفناء في معرفة الخير والحق .

هذه العاطفة هي ارتباطٌ بالله مدبر الكون ومصدر الخير والكمال المطلق والجمال الذي لا يتناهى والرحمـــة الـــتي وسعت كل شيء والحكمة التي لا يدرَك كنهها والمعرفة التي لا يحدّ مداها .

ومن أجل هذا كله كانت هذه العاطفة أسمى العواطف الإنسانية وأرفعها شأناً وأبعدها غـــوراً وأشـــدها قـــوة وأعظمها قدرة على توجيه ميول الفرد وتنظيم قواه وتهذيب دوافعه لإخضاعها جميعاً لقيادة واحدة هي النـــزوع إلى الكمال وبذل النفس في سبيل الحق وحده .

وقد تنمو هذه العاطفة ويقوى سلطانها حتى تهيمن على المرء وتسيطر على جنبات نفسه فتغدو هي الـــتي تقيمـــه وتقعده وتصحبه في غدوه ورواحه ونومه ويقظته وهنالك تكوّن الفرد تكويناً جديداً وتنشئه خلقاً آخر حتى يـــصبح أقوى ما يكون تعلقاً في الحق وإيثاراً له ودفاعاً عنه وزهداً في كل ما سواه .

وفي هذه الحال لا يفقد المرء دوافعه الفطرية الأولى فلا يزول منه الغضب ولا يزول الخوف ولا تنعدم لديه غريزة الجمع والادخار أو غريزة حب الذات وحب الأبناء بل يحتفظ بهذه الدوافع كلها وهي أتم ما تكون نشاطاً وأكثر ما تكون حيويةً ، ولكنها تعدّل الآن عن سلوكها الأول وتسمو إلى أفق فوق أفقها .

ذكرنا قبل حين أن الغرائز البشرية قابلة للتعديل ، وذكرنا أن خلاصة معنى تعدل الغريزة أن تكتسب الغريزة مثيراً غير مثيرها الفطري وسلوكاً غير سلوكها الطبيعي ، وذكرنا أيضاً أن أهم الوسائل لتعديل الغريزة نــشوء العواطــف المثالية لدى الفرد ، وأقوى هذه العواطف العاطفة الدينية .

فإذا نشأت هذه العاطفة لدى فرد نجد أن غريزة الخوف لديه مثلاً لم يعد يثيرها ما يخافه الناس من القتل والظلــم والتعذيب ، بل يثيرها شيء واحد هو سخط الله جل شأنه وعدم رضاه من التقصير في بذل النفس في سبيله .

فسميّة زوج ياسر صحابي رسول الله ﷺ تلك المرأة المسكينة التي كان يثار خوفها لأضعف الأســباب وأتفههــا تفتن أشد الفتنة وتبتلى بصنوف العذاب لتحرك لسانها بكلمة ترضي بها رؤوس الكفر ، وما كان يضيره أن تُجــري على لسانها ما يرضي هؤلاء ما دام قلبها مطمئناً بالإيمان ، ولكنها تؤثر أن تموت تحت العذاب على أن تُصمت لسانها عن اللهج بدعوة الحق .

وغريزة حب الذات لا تزول عند نشوء هذه العاطفة ، ولكن الذات تحب لتعمل في سبيل الله ولتُبذل رخيصة من أجله .. والأموال والأبناء تحب أيضاً لتُقدم رخيصة في سبيله وهذا تــحَب ما دامت تعين على تنفيذ أوامر الله ، فإذا ما أصبحت عثرةً في سبيل ذلك غدت بغيضةً مكروهة .

وعلى هذا فالأمور في نظر صاحب العاطفة تتغير قيمتها والمقاييس يتعدل نظامها فالقريب ليس قريبــاً لآصــرة النسب وصلة القرابة ، ولكنه قريب بمقدار تفهمه الفكرة وبذله في سبيلها .

خرج عبد الرحمن بن أبي بكر –وكان إذ ذاك مشركاً– في غزوة أحد يطلب المبارزة فانبرى له أبو بكر ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام : « مَتِّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْر » ومنعه من الخروج .

وقصة الخنساء مشهورة ، وهي شاعرة عربية مضرية مات أخوها في الجاهلية فجزعت عليه جزعاً شديداً وحزنت حزناً طويلاً ، ونظمت فيه المراثي ، وما زالت تُصعد الزفرات حتى كان الإسلام فجاءت إلى رسول الله ﷺ وأعلنت إسلامها وغدت بفضل إيمانها صابرة .

ولما سارت الجيوش الإسلاميّة لقتال الفرس كانت الخنساء عجوزاً قد تقوس ظهرها وعلاها الــشيب ، ولكنــها كانت متينة القلب جريئة مقدامة ، فلقد انطلقت في قومها إلى القادسية مع أولادها الأربعة وقبل أن تنشب الحــرب أوصتهم بوصية قالت فيها :

يا بني ! أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، وإنكم بنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحــدة ، مــا هجنــت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها وجللت ناراً على أرواقها فيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلود والمقامة .

وفي الصباح الباكر بادر أولادها كلٌّ إلى مركزه ، وأنشأ أولهم يقول شعراً يذكر قول أمه ثم استبسل وقاتل حــتى استشهد ، وكذلك فعل الثاني ثم الثالث ثم الرابع ، وانتهت الحرب بقتل كبير الفرس وتشتيت شملهم ، وتقدم نفر من رجال الجيش ينعون إلى الخنساء أولادها الأربعة بعد أن أبلوا في الحرب بلاءً حسناً ، فتلقت الخبر بجأش رابط وقالت كلمتها الخالدة : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَــا وَتِجَــارَةٌ تَخْــشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤]

وكذلك غريزة الغضب لا تفقد جوهرها ولا تنكسر شرتها ، ولكنها تتنكب سبيلها الأولى وتسلك سبيلاً غيرها ، ويصبح الغضب لا من أجل الذات أو الأموال والأبناء ولكنه من أجل الحق والدعوة إليه .

كان عليه الصلاة والسلام لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء ، وهكذا تعدَّل الغرائــز جميعها وتنظم الدوافع الفطرية وتخضع كلها لقيادة واحدة ويمكن أن نشبّه النفس بما فيها مــن قــوى واســتعدادات ومواهب وميول وعادات ومعارف وعقل وإرادة بقائد حوله كتائب جنده ، كلها تخضع لأمره ، وكلها ترغــب في طاعته لا يصرفها عن ذلك هوى ولا تعدل بها رغبة انتظمت جميعها في سلك واحد واندلعت كلها إلى غاية واحدة .

وهكذا تغدو هذه العاطفة عاطفة مسيطرة وهوى متمكناً ، وتصبح حديث النفس في غدوها ورواحها وشغلها في قيامها وقعودها ، ويقظتها ونومها ، وحين ذاك توحّد النفس ، وتنشئ من صاحبها شخصية هي أقوى شخصية يمكن أن تنجيها البشرية ، وأمثلة هؤلاء الأنبياء والمصلحون الذين حفظ التاريخ جهادهم وتضحيتهم الذين كان تتركــز في نفوسهم فكرة واحدة لا تغيب عن قلوبهم ساعة من ليل أو نهار .

وهكذا يبلغ برسول الله ﷺ الفكر ويشتد به الهم حتى يعاتبه ربه في ذلك ويقول له جلّ شأنه : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَـاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف : ٦] ويقول له في آية أخرى : ﴿ ... **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ... ﴾ [فاطر : ٨]

تحليل بسيط للعاطفة الدينية : تستجمع هذه العاطفة من العناصر ما لا تستجمعه أية عاطفة أخرى فهي خـــصبة كل الخصب غنية كل الغنى في النواحي الثلاث العقلية والقلبية والنـــزوعية وهي تقدم لهذه العناصر الثلاثة التي لا تخلو منها حادثة نفسية أوفر غذاءٍ وأتمه .

١- الناحية العقلية في العاطفة الدينية :

أما العقل فيحلّق في هذه العاطفة حتى يصل إلى إدراك أسرار الخليقة ومصدر هذا الكون ومَنشئه ومعاده ..

عماد هذه العاطفة الإيمان بالله جلَّ وعلا ، وهذا الإيمان ينساق إليه العقل البشري انسياقاً طبيعياً ويلغيه ضـــرورة لازمة لا يجد عنها محيصاً ، ويفسر هذا الإيمان ذاك النظام العجيب الذي يشاهده في الكون ، وهذا الاتزان التام الذي يبهر العقول كما يفسر معنى الحياة ومبدأها ومعادها ، تلك الألغاز التي تخبط فيها العقل الإنساني ما شاء أن يتخـــبط فوحدانية الإله ضرورة عقلية إذا استطاعت العقول أن تتجرد من المؤثرات المختلفة التي تحيط بها لتـــصل إلى التجـــرد العلمي الصحيح .

وأما الأنظمة التي جاء بها الدين والقوانين التي وضعها لتنظيم الحياة في سائر نواحيها فالحكمة فيها واضحة تمـــام الوضوح لذي عينين في غايتها ومقاصدها .

وإن العقل البشري ما زال يتطوح في أودية البحث ، وما زال يهيم في مهامه التنقيب وما يزال عاجزاً كل العجز عن حل أصغر مشكلة من مشكلات الحياة الاجتماعية ، وما يزال العالم الغربي -وله القيادة الفكرية في العالم اليوم- يرزخ تحت مشكلات شتى سياسية واقتصادية ما ينهض من كبوة إلاّ ليقع في أشد منها .

والعقل في نظر الدين محترم كل الاحترام ، ولقد رفع من شأنه إلى درجة حملت المجتهدين على اعتبـــار المـــصلحة أساساً للتشريع والعقل هو المحكم في البحث عن المصلحة .

٢- الناحية القلبية في العاطفة الدينية :

والناحية العاطفية لها السلطان القوي في هذه العاطفة وهي في منتهى القوة في كيفها وكمها ، أما مـــن حيـــث الكيف فلشدتها وهيمنتها على النفس وغلبتها عليها ، وأما من حيث الكم فللعناصر العاطفية الكثيرة التي تضمها بين جنباتها .

فهي عاطفة تهيم في الحق وتؤثر جانبه وتبذل النفس والنفيس في سبيله وهي إلى جانب ذلك سداها محبة الخـــير ، ولحمتها الرحمة ، وقوامها إسعاد البشرية ، يفيض قلب صاحبها بالرحمة والخير حتى يشمل العالم بمخلوقاته جميعها .

ثم إنّ صاحب هذه العاطفة مطمئن إلى عدل الله ورحمته لا تزعزعه الشدائد ولا تهوله المصائب ولا تفارق السكينة قلبه ، وإن أحدقت الأخطار واشتد الكرب وعظم الخطب قوي الثقة بخالقه مؤمن بانتصار جانب الحق ، وهـــو إلى جانب قوته لا يطغيه الفوز ولا تفسده الغلبة بل هو أقرب ما يكون إلى العفو والصفح .

٣- الناحية النـــزوعية في العاطفة الدينية :

وإذا كانت العاطفة الدينية عاطفة عامة شاملة يمتد أفقها ليشمل الإنسانية كلها ، وتتسع غايتها لتضم أفراد البشر جميعاً ، فهي لهذا في نضال دائم وجهاد مستمر للدعوات الباطلة التي تناهضها والنـــزعات الزائفة التي تعترض سبيلها، ويتصف جهادها بأنه جهاد رحيم قائم على الرفق والحكمة يهدف إلى الانتصار للحق وليست غايته القهر والغلبة .

الأسس التي نقيم عليها بناء تربية هذه العاطفة : من التحليل السابق لمفهوم العاطفة الدينية ربما يتضح لنا أن هذه العاطفة وسيلة قوية من وسائل التربية يجدر بنا أن نعنى بها عناية تامة .

ويمكن أن نلخص الأسس التي نقيم عليها بناء تربية هذه العاطفة فيما يأتي :

١- هذه العاطفة عاطفة مثالية تنـــزع إلى أسمى مثالية يمكن أن يعرفها العقل البشري ، وهي تؤلف دوافع المـــرء جميعها وتضم قواه كلها تحت قيادتها وتستغل نشاطه جميعه لغايتها وتطالبه بجهود مستمرة وسهر دائم .

٢- تكوّن هذه العاطفة صاحبها تكويناً جديداً وتنشئه نشأة أخرى ، وتجعل منه شخصيةً قوية متماسكة تنـــدفع إلى غايتها بعزيمة جبارة لا تعرف التردد ولا تقع في شيء من النـــزاع النفسي أو الصراع الداخلي .

٣- تحقق هذه العاطفة لصاحبها أقوى سعادة يمكن أن يصل إليها العقل البشري لأن أصل السعادة في الحيـــاة أن يكون للفرد غاية يسعى إلى بلوغها ، وكلما كانت الغاية أسمى مثالية وأنبل مقصداً وأشمل خيراً للإنسانية كان الشعور بالسعادة أتم وأقوى ، ولا بد هنا من التأكيد على أن العاطفة الدينية ليست لذة شخصية وليست حرصاً على الخـــير الذاتي وسعياً وراء السعادة الخاصة ولكنها سعي لخير العالم كله وجهاد في سبيل الإنسانية كلها .

٤- تشعر هذه العاطفة صاحبها بأن للحياة معنى وأن لها معنىً سامياً جداً ، وأنها لذلك ذات قيمة كـــبيرة وأنهـــا جديرة بالحرص عليها وتقديرها حق قدرها .

وأن البون لشاسع جداً بين من يعرف قيمة الحياة ويقدر أهميتها ومن يعيش وهو لا يعرف للحياة معنى ولا يدرك لها غاية ، ومن المؤسف أن كثيراً من شبابنا قد حرموا لذة التمتع بمعنى الحياة .

٥- بتعبير آخر يشعر صاحب هذه العاطفة بأنه صاحب رسالة في الحياة ويشعر بأن رسالته ساميةٌ جداً عظيمـــة جداً ، وأنها تحتاج إلى همّة كبيرة وجهود وافرة .

٦- وإذا كانت رسالته كبيرة فعليه أن ينبه وعيه ويوقظ دوافعه ويتعهد نفسه لأنه يعيش في الحياة لا مـــن أجـــل نفسه فحسب بل من أجل مجتمعه والإنسانية جميعها فعليه أن ينمي ملكاته ويربي مواهبه حتى تبلغ أقصى مداها .

بعض مُلاحظات في تربية العاطفة الدينية

١- **الإيحاء العملي أقوى أثراً في التربية من الإيحاء النظري** : إنّ تلقين المبادئ السابقة تلقيناً نظرياً جدواه قليلـــة جداً ، أما تحقيق الغاية المرجوة فلا يتم على الوجه الأكمل إلاّ بوجود مثال حي يقتفي أثره ويحتذي حذوه . ووجود القائد المثالي في جماعة ما أشد تأثيراً وأكبر فعلاً في خلق المثالية في أفراد تلك الجماعات من مئات المحاضرات وألـــوف المجلدات .

وربما كان أقوى عامل في سمو مثالية أصحاب الرسول ﷺ تأثرُ قلوبهم ونفوسهم وعقولهم بمثالية الرسول العربي ، بهذا يتحدث عمر بن الخطاب حين يزور أبا عبيدة بن الجراح فيقول له كلنا تغيرنا بعد رسول الله إلاّ أنت .

وهذه الفكرة تبتنى على أن الإيحاء العملي أقوى وأشد تأثيراً من الإيحاء القولي فإذا قلت لطفلك لا تخف في حـــينٍ كنت فيه ترتعش من الخوف كان سريان عدوى خوفك إليه أقوى ألف مرة من الأقوال التي تنادي فيها بوجوب عدم الخوف مهما كانت بليغة مؤثرة .

وإذا أردت أن توقظ روح الحماسة في أبنائك أو إخوانك فلا بد أن تكون أنت متقداً حماسة والحماسة الكاذبـــة والمتكلفة لا تنتج إلاّ حماسة كاذبة أو متكلفة . وإنّ القائد يطبع أتباعه بطابعه الخاص على الرغم منه ومنهم ، حتى في الحال التي ينتقدون فيها سلوكه ، ذلك أنه يؤثر فيهم عن طريق لا شعوري .

٢- **التربية غير المقصودة أجدى من التربية المقصودة** : إذا كان الإيحاء العملي أقوى من الإيحاء القولي فالتربيـــة غير المقصودة أجدى من التربية المقصودة .

ونريد بالتربية المقصودة تربية العاطفة الدينية في دروسها الخاصة بها ، وهذه لا شك أنها ضرورية لا بـــد منـــها ولكنها ليست بكافية والذي هو أجدى تربية هذه الروح في كل المناسبات والأحيـــان ، في الحفـــلات والـــرحلات

والاجتماعات عن طريق لا شعوري غير مقصود ، ذلك أن الفكرة التي تتسرب إلى نفس الطالب لا شعورياً هي أشد ثباتاً وأقوى رسوخاً في نفسه .

تربية النواحي الثلاث العقلية والعاطفية والإرادية في العاطفة الدينية : من كل ما سبق نرى أن العاطفة الدينية يجب أن تربى عند الشاب على أنها رسالة يؤديها تهيمن على نفسه وليس للحياة معنى بدونها ، يؤمن بها إيماناً قوياً ويجد فيها غذاءً تاماً لعقله وإرادته ، وبتعبير آخر لا بد أن يؤيد هذه الرسالة الفكر والبحث العلمـــي ولا بـــدّ أن يؤيـــدها الوجدان الحي والقلب الذكي ، ولا بد أن تجد فيها النواحي الإرادية والنـــزوعية ما يرضي تطلعها ويطفـــئ ظمأهـــا فلدينا إذن نواح ثلاث : أُولاهن عقلية والثانية عاطفية والثالثة إرادية ولا بدّ لنا في تربية العاطفة الدينية من العناية بهذه النواحي كلها ونجد في التراث الإسلامي ذخيرة لا تنفذ لتغذية هذه النواحي الثلاث .

النواحي الثلاث في التراث الإسلامي

يمثل الناحية العقلية في التراث الإسلامي ما قامت به الفرق الإسلامية من نضال في تأييد مذاهبها كالمناقشات التي قامت بين الأشاعرة والمعتزلة ، وما زخرت به كتب التوحيد وعلم الكلام من حجج وبراهين وتلك الرسائل المطولـــة التي ألفت للرد على المذاهب الباطلة وهذه المباحث الجديدة التي يقدمها علماء المسلمين المحدثون وكتّابهم للدفاع عن الإسلام في هذه المدنية الحديثة والموازنة بين الأنظمة الحديثة والنظام الإسلامي وبيان رجحانه .

أما الناحية الثانية فيمثلها جماعة الصوفية بخلواتهم ومجاهداتهم وانقطاعهم للعبادة وتلك الآثار الـــتي تركوهـــا في التفكير الإسلامي ، وتلك المعالجات النفسية الخلقية .

ويمثل (الناحية الثالثة) الجهاد في سبيل نشر الدعوة سواء كان جهاداً قولياً أو فعلياً والمؤسسات الإسلامية بأنواعها المختلفة ، ومختلف أنواع النشاط الذي تقوم به الجمعيات الإسلامية في العصور الحاضرة .

مآخذ على كل جماعة من الجماعات السابقة : ويؤخذ على كل جماعة مـــن الجماعـــات الـــسابقة إيغالهـــا في موضوعها وحده وغلوها في الاستمساك به مع إهمال الناحيتين الأخريين ، فالذين تفرغوا للناحية العملية أهملوا علـــى الغالب الناحيتين الروحية والخلقية إهمالاً تاماً ونشأ عندهم على الغالب صلف علمي ، واتخذوا العلم كمـــا يـــصفهم الغزالي مطية للوصول إلى المراتب الدنيوية ، وبعدوا بذلك كل البعد عن الروح الإسلامية .

وأما جماعة التصوف فقد داخلهم زيف كبير ، والمخلصون منهم أغرقوا في ناحية واحدة وأهملوا النواحي الأخرى كما ذكرنا ورأوا أن نجاة أنفسهم مقدَّمة على نجاة غيرهم ووجدوا أن ذلك لا يتم إلاّ في البعد عن الجماعة وممارســـة الرياضات المتنوعة القائمة على كبت الغرائز الفطرية وقهرها بسبل غير طبيعية غير معقولة ، ولقد بعدوا بذلك أيـــضاً بعداً كبيراً عن الروح الإسلامية التي هي اتزان تام بين جميع مناحي الحياة أولاً واحترام للفطرة ومـــسايرتها في ســـبيل

إعلائها ثانياً : لقد عرف أصحاب رسول الله ﷺ معاني الإخلاص التي يتطلبها الإسلام معرفة تامة ولكنهم عرفوها معرفة إيجابية في ميادين القتال وفي النضال مع خصوم فكرهم وفي دعوتهم الناس إلى اتباع الحق ، وفي مناقشاتهم إخوانهم في وجهات النظر المختلفة ، وتربية الإخلاص في ميادين الجهاد المختلفة هي الشيء الطبيعي ، أما تربية الإخلاص في الاحتجاب في الزوايا والفرار من الناس فشيء يقتل فعالية النفس ويخالف فطرتها التي فطرها الله ويضطرها إلى بذل جهود كبيرة ضائعة لا تنتج إلاّ إخلاصاً قاتماً غير صالح للحياة ..

على أننا لا ننكر أن فريقاً من الصوفية كانوا من أدق الناس فهماً للفكرة الإسلامية ومن أخلص الدعاة العاملين لمبادئها الصحيحة وأقواهم على تحمل المشاق والصبر على الأذى في سبيلها .

وأما الفريق الثالث ذوو النشاط الاجتماعي فقلّ أن نجد منهم في عصرنا الحاضر من يجمع إلى العمل في سبيل الدعوة شروط الدعوة من فهم تام للفكرة والدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والإحاطة الشاملة لمبادئ الإسلام وتعاليمه ، إلى جانب الإخلاص في الدعوة والجهاد الذي لا تشوبه شوائب المنفعة الذاتية .

واجبنا تجاه هذه النواحي الثلاث : مما سبق يتضح لنا مكانة كل ناحية من النواحي السابقة وضرورة العناية بكل منها عناية كبرى على أن نهتم كل الاهتمام في ألا تطغى واحدة منها على رفيقاتها :

أما الناحية الأولى العقلية فيجد فيها الطالب بحراً زاخراً من الكتب والمقالات القديمة والحديثة .. ولكن المؤسف جداً أن الطالب يضيع في هذا البحر الخضم فلا يدري على أي شيء يقع فيه ولا يعلم أين دره من صدفه ، وحبذا لو كان هنالك وفرة من الكتب الجامعة التي تضم كل الموضوعات الإسلامية الهامة التي لا يصح لشاب مسلم يعيش في وسط هذه الأزمات العالمية المختلفة والتيارات المتباينة أن يجهلها .

ومن المؤسف أيضاً أن علماء المسلمين اليوم لا يشاركون في شيء من العلوم الحديثة ولا يسايرون ركب المدنية الحاضرة بل هم في معزل عن أبناء هذا الجيل بعيدون عن معرفة مشكلات هذا العصر التي يرزح العالم كله تحت أعبائها ومشكلات شباب هذا العصر .

ولم يكن كذلك أسلافهم من علماء المسلمين بل كانوا في الذروة من حيث الإلمام بسائر علوم عصرهم وكان يشاركون فيها مشاركة يفوقون بها أصحابها المختصين بها ، وكانوا أقدر الناس على نقدها وتمييز طيبها من خبيثها .

أما علماؤنا فهم مجمعون على كلمة واحدة هي أن الناس قد فسد أمرهم ولا يُصلح حالهم إلاّ العود إلى تطبيق مبادئ الإسلام ؛ كلمة سهلة ميسرة يعلمها الجاهل والعالم وينطق بها الكبير والصغير ولا يختلف فيها اثنان .. ولكن كيف السبيل إلى حمل أبناء هذه الأمة على تطبيق مبادئ دينهم ؟

وما لهذه التيارات الفكرية الأجنبية قد غزت قلوبهم وعقولهم واحتلت سويداء أفئدتهم وباعدت بينهم وبين كـــل معنى من المعاني الدينية ، كيف استطاعت هذه الأفكار الجديدة التغلب على كثير من أبناء هذا الجيل حتى أبناء العلماء الذين نشؤوا بين أحضان الدين وشهدوا تطبيقه صحيحاً أو غير صحيح ؟ كل هذه الأسئلة وكثير غيرها لا يفكر فيها علماؤنا اليوم ولا يعنون بدراستها والبحث عن أسبابها .

ولذا فهم أبعد ما يكونون عن القدرة على عرض مبادئ الإسلام عرضاً يناسب أبناء هذا الجيل مـــن المـــسلمين وغيرهم عرضاً مبنياً على ضوء معارف هذا الجيل والعلوم الحديثة ، وهم عاجزون مثل هذا العجـــز عـــن معالجـــة مشكلات العالم الحديث في ضوء تعاليم الإسلام ولذا كان أبناؤنا في فقر مدقع في هذه الناحية لا يجدون فيها ما يسد رمقاً ويطفئ غليلاً وليس من شك في أنه لا بد من دعوة إصلاحية كبرى ومن جهود كبيرة في سبيل التجديد .

وظني أن هذه الدعوة الإصلاحية لا يصلح للقيام بها إلاّ أولئك العلماء الذين أحاطوا بالشريعة الإسلامية وشاركوا مشاركة تامة في فهم روح المدنية الحديثة وأساليب بحثها واستخدام طرائق العلم الحديثـــة في إيـــضاح المـــشكلات الاجتماعية ومعالجتها ، واستطاعوا في ضوء هذا كله إيضاح موقف الدين ورأيه في المشكلات الإنسانية الحاضرة كلها بتجرد علمي تام دون تعصب أو حيد عن سبل الحق الواضحة .

أما ما نقدمه إلى شبابنا في دراستهم –الثانوية والعالية– فهي دراسات جزئية مبتورة لا تعطي فكرة تامة ولا تكون بناء كاملاً ، ولا تخرج عن كونها تخبطات أولية ما يزال بينها وبين النضج والاستواء مراحل بعيدة .

الناحية العاطفية : لعل ما قدمنا من تحليل سابق للعاطفة الدينية وتقسيمها إلى نواح ثلاث يوقـــع في الـــوهم أن هنالك أقساماً ثلاثة منفصلاً بعضها عن بعض بحدود واضحة بينة ، والواقع ليس كذلك ، إذ ليس لواحد مـــن هـــذه الأقسام وجود مستقل في نفس صاحبها بل هي توجد كما هو شأنها في كل حادثة نفسية متمازجة متداخلة تؤثر كل واحدة في رفيقاتها وتتأثر بها ، وليس بالإمكان أن تبقى أية فكرة في النفس مجردة منعزلة لا تحدث أي انفعال أو عاطفة ولا تدعو إلى أي نزوع إلاّ إذا كانت الفكرة في منتهى الركود والجمود .

فالفكرة تنشأ عنها عاطفة ، والعاطفة تدعو إلى الفكر وكلاهما يحدثان في المرء نوعاً من النـــزوع والناحية العقلية في العاطفة الدينية عنصر هام جداً يؤثر تأثيراً كبيراً في الناحية العاطفية ويتأثر بها ، وينشأ عن الناحية العقليـــة تقـــدير لموضوع العاطفة واحترام لها وهذا التقدير يزيد العاطفة قوة وحدّة ، وينشأ عن الناحية العقلية أيضاً إحساس بالدقـــة وتقدير للأمور وقياسها بأصح معاييرها وكل هذا ينجي المرء من أنواع الخداع الكاذب والوهم الباطل .

والعبادة هي الجانب الذي شرع في الدين لتنمية الناحية العاطفية إذ (هي ضرب من الخضوع بالغ حــد النهايــة ناشئ عن استشعار القلب عظمةً للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطةٍ له لا يدرك كنهها وماهيتها) تفسير المنار ص ٥٧٠ ج١ .

ولكن العبادة إذا خلت من التأمل والتفكير لم تؤد إلى غايتها وأصبحت شيئاً لا روح له ولا معنى .

ولقد شهدت بعض أولئك الذين ينتسبون إلى الطريق الصوفية يغالون في دعوة العبادة ويوقظون في أنفسهم نوعاً من الحماسة إلى العبادة ، مبنياً على أوهام شهدوها ، وخيالات تمثلوها ، وقصص يدعون أنها وقعت لهم يقصونها عن أنفسهم ، وهي لا تخرج عن صور منتزعة من عالم أحلامهم فإذا كانت بينهم وبين الناس معاملة كــانوا أبعــد مــا يكونون عن فكرة العدل وكانوا أشد الناس ظلماً وفجورا .

إنّ مثل عبادة هؤلاء ضرب من الخداع لأنفسه والضلال عن الحقيقة .

لا بد أن تؤدي العبادة إلى تهذيب في النفس وسمو في الخلق فإذا لم تؤد إلى ذلك كانت ضرباً من الريــاء (ريــاء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، أو رياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته : وقد ورد في بعض الأحاديث : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعداً » وأنها تُلف كمــا يلف الثوب البالي ويُضرب بها وجهه) تفسير المنار ص ٥٨١ ج١ .

لا بد أن تؤدي العبادة إلى إعلاء الغرائز البشرية فإن لم تفعل ذلك فليست عبادة ﴿ **إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًــا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ** ﴾ [المعارج : ١٩-٢٢]

ومن المؤسف جداً أن الذين يقومون بالعبادات في عصرنا هم على الغالب من أشد الناس جزعاً وأعظمهم حرصاً ذلك لأن عبادتهم لا تخرج عما سبق وسبب هذا نشوء مفهوم للعبادة في أيامنا هذا رخيص جداً بعيد كل البعد عــن معناها السامي هو اقتناع من العبادة بقشرها الذي لا قيمة له أبداً واستراحة إلى القيام بأعمال لا تزيــد علــى أنهــا حركات لا روح ولا قالب ولا معنى لها .

تلك النظرة إلى العبادة متدنية جداً منحطة جداً لا تختلف عن نظرة أولئك الذين يحاولون أن يحطوا عن كواهلهم أعباء الواجبات الشرعية من مالية وغيرها بما يسمونه بالحيل الشرعية .

ولا تخرج نظرة هؤلاء وأولئك عن نوع من السخرية بهذه الأحكام ومشرّعها والمكر والكيد كمــا تعــودوا أن يكيدوا ويمكروا بأنفسهم وقرنائهم .

ومنشأ هذا كله كما ذكرنا فساد الذوق الديني واختلال القيم الدينية ومعاييرها وجدير بنا الاهتمام بمعالجة هـــذا الضعف ومناقشة فكرة العبادة مناقشة واضحة وكشف الغموض الواقع في هذه الناحية ، وإيضاح الفكـــرة الدينيـــة إيضاحاً يميز كل أنواع اللبس والخداع النفسي التي يقع فيها مدّعو العبادة ؛ وإيقاظ الوجدان الديني ، وتصحيح المعايير الدينية . ثم إنّ العبادة تؤدي إلى مواجهة الشدائد بثغر باسم وقلب مطمئن وذلك لأنها استلهام من قدرة وراء الغيـــب هي فوق كل قدرة .

(كان رسول الله إذا حزّبه أمر فزع إلى الصلاة) وهي وسيلة لإنشاء مفهوم للثقة في النفس من أقوى أنواع الثقـــة بها بعيد كل البعد عن مفهوم التواكل الشائع في متعبدي زمننا فرسول الله لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يدع هذا الأمر لم يدعه حتى يظهره الله أو يهلك دونه .

وسيرة الرسول العربي هي المعين الذي لا ينضب لفهم الإسلام فهماً واقعياً وتمثيله تمثيلاً عملياً وكـــذلك ســـيرة أصحابه وخلفائه الراشدين من بعده .

وللجماعة أثر كبير في تنمية العاطفة وانتشار روح جديدة والتسامي بأفراد الجماعة فمن الخير الكـــبير أن يـــسير الطلاب على نظام الأسر لكل أسرة رائد هو بمنـــزلة الأخ المرشد المسؤول عن إخوانه ولكل أسرة اجتماعات خاصة ورحلات مشتركة تهدف إلى إنماء شعور الفرد بمسؤوليته عن جماعته وشعوره بأنه خلية في جسم جماعته لها أثرهـــا في صحة الجماعة العامة ولها فيها مكانتها ، كما تهدف إلى إنماء روح الأخوة والحرص على الجماعة والتعلق بها والشعور بأن لها جوها الخاص وروحها الخاصة .

الناحية النـــزوعية :

وأما الناحية الثالثة فربما كانت أهم هذه النواحي وكلها كبير الأهمية ، إذ هي بمثابة النتيجة والمحصلة لها . يجب أن نعود طلابنا العمل ويجب أن ننشئ لهم المجالات لإخراج أفكارهم إلى حيّز الوجود ، وإلاّ بقيت فكرة الإصلاح الـــتي تجول في نفوسهم أحلاماً واستبدلوا بعالم الجد واليقظة عالم الأحلام فركنوا إليها واطمأنوا بها .

إنّ المجتمعات الإسلامية فقيرة جداً في حياتها الاجتماعية وهي أحوج ما تكون إلى جهود كبيرة تبذل مـــصحوبة بالقلق على الأمة والحدب عليها . وإنّ أرقى طبقات الشعب هم الطلاب فلنسمح لهم بخدمة شعبهم ولنـــسمح لهـــم بتحقيق أحلامهم ، فإن لم نفعل فإن جذوة الحماسة تنطفئ في قلوبهم حتى تخمد وتضمحل وبذور الخير تفسد وتبلى في نفوسهم .

كثير من الطلاب يحلمون بإصلاح مجتمعاتهم فما لنا لا نسمح لهم بذلك ولا نشجعهم على المضي فيه ؟

لم لا ندعهم يعملون على مكافحة الأمية ومكافحة الجهل والأوبئة في بيئتهم والجهاد في سبيل مختلــف أنــواع الإصلاح الاجتماعي ؛ في إنشاء جمعيات تعاونية وأخرى خيرية ، وثالثة خلقية ورابعة تهتم بالعاطلين من العمــال ، وخامسة تعنى بالإصلاح الريفي وما إلى ذلك ..

وما لنا لا ننمي رجولتهم وثقتهم بأنفسهم بأن نمهد لهم لحشد جهودهم وتوجيهها وتنظــيم جماعتــهم وقيــادة أمورهم بأنفسهم ..

وبكلمة موجزة يجب أن نعلم شبابنا أن الرسالة الإسلامية ليست عقيدة فحسب وليست جهاداً فحسب ، ولكنها مكونة من العقيدة والعبادة والجهاد في سبيل الإصلاح الاجتماعي ، ونشر دعوة الحق فإذا أهمل أي عنصر من هــذه العناصر تصدعت هذه الوحدة وفقدت الدعوة الإسلامية معناها الصحيح .

وعلينا أن نعنى أتم العناية بكل من هذه العناصر الثلاثة . وعلى الأخص بالثالث منها الذي يكاد يكون مفقــوداً ، ولذلك فلنفسح المجال لشبابنا ، ولندربهم على ممارسة أداء رسالتهم أداءً فعلياً ، وليكن موقفنا منهم موقــف المرشــد الموجه ، فإن لم نفعل ذلك فجهودنا النظرية كلها تذهب هباءً منثورا .

(*) فصل من كتابه لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها .. ونحن ننشر هذا الفصل –على طوله– كاملاً غير مجزأ تعريفاً بفكــر الأستاذ الجليل وأسلوبه في البحث وتحية الطلائع الإسلامية لذكراه رحمه الله .